**الدكتور جمال عرفات**

# القائد ولعبة المفاهيم والتوصيفات

"أوّل طريقة لتقويم ذكاء القائد هي أن
تنظر إلى الرجال المحيطين به".
نيكولو مكيافلي

الكتابة في موضوع القائد والقيادة، أمرٌ نحسبه بسيطًا، لكنّه معقّد، أو بالأصحّ معقّدٌ جدًا، خصوصًا إذا تمّ فرض القائد كقائد بالقوّة الوظيفيّة أو العسكريّة أو سواهما.

وما دعاني، لأكتب عن القائد، تلك العبارات التي سمعتها، ويسمعها الكثير منّا، عن هذا المصطلح الذي بات في غالب الأحيان، مصطلحًا هشًّا، لا يُعبِّر إلّا سوى عن استلشاق بالقائد وبالمهمّات المُلقاة عليه.

كنّا، زملائي وأنا، نمشي في ملعب المدرسة بين الطلاب خلال الاستراحة الصباحيّة الأولى، وإذا بأحد الطلاب يلقي عليَّ التحيّة بعبارة "مرحبا يا قائد"، فلم أُعِره وعبارته أيّ اهتمام، متجاهلًا ما قاله، لكنّه أصرّ على تكرارها مرّة ثانية بقوله " شو يا قائد، ما بينرد علينا"، فابتسمت له ورددت بعبارة "أهلًا، بس ما بعرف ليش أنا قائد، وإنتَ لأ؟ ما إنت القائد أو بالأحرى إنتَ شيخ

القادة"، فتبسّم وتوجه نحو رفاقه، وتابعنا نحن السير ذهابًا وإيابًا في الملعب؛ لكنّ كلمة القائد أخذتني إلى التفتيش عن أصلها اللغويّ، وبداية استخدامها، ومتى تُقال، ولمن تُقال، وما غايات قولها، فجاءت مقالتي هذه لتطرح مروحة من المفاهيم، وتعرض العديد من المواقف، وتنتظر حُكمًا النقد لها.

القائد كمصطلح "من يكون له الأمر والنهي في الجيش، أو قيادة فرقة موسيقيّة، أو قيادة إدارة معيّنة، وما إلى ذلك من استخدامات"؛ في حين أنّ القيادة "هي قوّة التأثير في نشاط فرد أو مجموعة بغية تحقيق الهدف".

ولكي تكون قائدًا فهذا يستدعي أن تمتلك الشجاعة مع الذات قبل أن تمتلكها مع الغير، وهي مسألة في غاية الأهميّة، لا بل تكون الأهمّ على الإطلاق، وتوجب عليك القيام بما يتطلّبه الموقف من رؤية ثاقبة توصلك والآخرين إلى تحقيق الهدف أو الأهداف التي تصبو إليها، وإن تطلّب ذلك جهدًا وسهرًا كبيرين.

لقد تزايد منذ منتصف القرن الماضي، استخدام مصطلح "القائد"، بشكلٍ واضح، وجاء موصوفًا بالعديد من الصفات المتلازمة له؛ القائد التاريخيّ، والقائد الاستثنائيّ، والقائد الضرورة، والقائد المُلهم، والقائد الفذّ، وغيرها من المتلازمات التي تبيّن مدى الاستهلاك الدونيّ في الكثير من القضايا لمصطلح القائد، حتى بات هذا المصطلح يُفرض بالقوّة كعبارة الأب القائد، أو الرئيس القائد، أو الأخ القائد، أو الرفيق القائد، أو الإمام القائد، وغيرها، وكلنا يعلم أن مصطلح الرئيس أو الإمام الذي يقود الأمّة هو أعلى قيمة من مصطلح القائد، فنرى البعض يستخدم الأعلى "الرئيس" أو "الإمام"، ويُرفقه بالأدنى منه وهو "القائد" فيصبح الرئيس القائد أو الإمام

القائد، وكأننا نضع الشخص بداية في درجة أعلى، ثم نُهبط من درجته لاحقًا، وهكذا، لكنّ هناك استثناءات يجب الاعتراف بها، خصوصًا إذا التحم المصطلحان بعضهما ببعض.

قرأ جميعنا وتصفّح العديد من الكتب التاريخيّة والدينيّة والسياسيّة، الصادرة، قبل منتصف القرن العشرين، فنادرًا ما نجد مصطلح القائد مُستخدمًا بشكل مباشر، بل كان يأتي في سياق مفهوم شامل أو عامّ، نستنتج منه المصطلح المقصود، لكن ابتداءً من أربعينيّات القرن الماضي، بدأ الاستخدام لمصطلح القائد يرتفع منسوبه، واستبدل أحيانًا كثيرة بمصطلح الزعيم، حتى أضحى المصطلح مرادفًا لجميع النشاطات العسكريّة والسياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والرياضيّة، وذهب إلى حدّ استخدامه في العصابات ذات البعد العدوانيّ أو الإجراميّ أو السوقيّ وغيرها.

يستدرجنا الكلام عن القائد في قول السيّد المسيح (عليه السلام)، لرسله الاثني عشر، وفق ما ورد في إنجيل متّى "من أراد أن يكون فيكم أوّلًا فليكن لكم عبدًا" و"عندما نخدم الآخرين نخدم أيضًا الربّ".

وإذا ما قرأنا في القرآن الكريم وفي الأدبيّات الإسلاميّة، نجد أن المصطلح لم يُستخدم بشكل مباشر، بل جاء تفسيرًا للمهمّة التي جاء بها الأنبياء المتعلّقة بسياسة الناس وإخراجهم من ظلمات الشِرك والظلم والجهل إلى النور والعدل والمعرفة، وهي من سنن الله تعالى جلّ جلاله.

والقرآن الكريم والسُنّة النبويّة تبيّن للناس عمومًا صفات تلك القيادة وخصائصها وطبيعة تكوينها وملامح شخصيّتها من دون أن تسمّيها، والناس هنا بحاجّة إلى جلاء حقيقة الصحيح من الدعيّ، لذا جاء قول الرسولﷺ "أناسٌ صالحون في أناسِ سوءٍ كثير، من يَعصيهم أكثر ممّن يُطيعهم"، وهذا إشارة إلى مكانة من يطيع، وإلى الإلتفاف حول هؤلاء المجدّدين ليقوموا

بمهمّتهم الشاقّة، المتمثّلة باستمرار المسيرة والتواصل في العطاء، وهذا ما أشار له الخليفة الراشديّ عمر بن الخطّاب عندما قال "وددّت لو أنّ لي ملء هذا المسجد رجالًا من أمثال أبي عبيدة أستعملهم في الإسلام".

إنّ نصوص القرآن الكريم، والأحاديث النبويّة الشريفة، وأقوال أهل البيت والصحابة والفلاسفة وغيرهم عن القيادة، لا تأتي في سياق النظريّة المجرّدة أبدًا، بل هي تدخل في ثنايا الحديث عن الرموز البارزة في مسيرة البشريّة، تُجلّي لنا بيئتهم، وظروف معيشتهم، وأسلوب تفكيرهم وسلوكهم، ومواقفهم الحيّة والمباشرة، ونظرة الناس إليهم، والأدوار التي تُبرزهم، والمنعطفات التي تدفع بهم للمقدّمة.

فالقيادة لا تتخرّج من المقاعد المشلولة والأسوار المقيّدة والمناهج الرتيبة، إنّها صنعة الحياة، ونتاج المجتمع، وبذور التاريخ، ومُخرَجات الأزمات، ومنحة الله للناس؛ فليس لأحد، بعد ذلك، أن يتعلّل بالقَدَر أو أن يركن للناس؛ إنّهم جزء من البشريّة، وعنصر في مجتمعهم، لكنّ شخصيّتهم تفرض وجودها بقوّة متسلّلة من خلال المواقف والأفكار والتأثير.

من أهمّ خصائص هؤلاء القادة الاستجابة والتغيير، والتأثّر والتأثير، وهذا ما نجده في الآيات (15–19 من سورة القصص) "وَدَخَلَ المَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفلَةٍ مّن أَهلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَينِ يَقتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِن عَدُوّهِ فَاستَغَاثَهُ الذي مِن شِيعَتِهِ عَلى الّذِي مِن عَدُوّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيهِ قَالَ هَذَا مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنّي ظَلَمتُ نَفسِي فَاغفِر لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنعَمتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلمُجرِمِينَ * فَأَصبَحَ فِي المَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الذي استَنصَرَهُ بِالأَمسِ يَستَصرِخُهُ قَالَ لَهُ مَوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ * فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَن يَبطِشَ بالذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن

تَقتُلَنِي كَمَا قَتَلتَ نَفسًا بالأَمسِ إِن تُرِيدُ إِلّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ المُصلِحِينَ".

كما أنّ القرآن يخبرنا أنّ هؤلاء القادة يمتلكون خصائص جسديّة وعقليّة ووجدانيّة ونفسيّة تميّزهم عن غيرهم، "وَقَالَ لَهُم نَبِيُّهُم إِنَّ اللَّهَ قَد بَعَثَ لَكُم طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلكُ عَلَينَا وَنَحنُ أَحَقُّ بِالمُلكِ مِنهُ وَلَم يُؤتَ سَعَةً مِّنَ المَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصطَفَاهُ عَلَيكُم وَزَادَهُ بَسطَةً فِي العِلمِ وَالجِسمِ وَاللَّهُ يُؤتِي مُلكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" (البقرة 247).

نستنتج من هذه الآيات الكريمة أنّ القادة يجب أن يتمتّعوا بكمال أجسامهم وقوّتها، وهذا لا يخصّ الناس العاديّين فحسب، بل هو قانون إلهيّ في سائر المخلوقات، أن يتميّز القياديّون بملامح العِلم والقوّة لكي يستطيعوا دعم الحقّ الذي يحملونه، والعدل الذي يفرضونه، والخير الذي ينشرونه؛ وفي جميع الكائنات ترتكز القيادة في العناصر الأقوى جسدًا، فجبريل أقوى الملائكة، وإبليس ومردة العفاريت أقوى الجّن، وهكذا الحال في عالم الحيوانات والنبات، فضعف الجسد يتبعه غالبًا ضعف في الشجاعة الأدبيّة، والعزيمة الفاعلة، والإرادة الصلبة، والنَفَس الطويل، لكنّ البعض يقف عند هذا الحدّ من خصائص القيادة، ويختزل القيادة في ملمح واحد من ملامح الشخصيّة وتجليّاتها، وهو القوّة الماديّة أو القوّة الماليّة أو القوّة العسكريّة، وسواها من الاختزالات، فمن خصائص القيادة قوّة العقل في جميع مكوّناته ووظائفه، وهو ما يعبر عنه القرآن بـ "بسطة في العِلم". ولا شكّ في أن البسطة في العِلم لا تكون إلّا مع ما يمنحه الله للعبد من ذاكرة نشطة، وفهم دقيق، وإدراك سريع، وذكاء وقّاد، فكلّما اتّسع الوعاء اتّسع مضمونه.

ومن خصائص القيادة تقديرها للذات ولمتطلبات المهمّة وتكاملها مع الغير وتوظيف الطاقات من حولها من دون أن تجد في النفس مضاضة من ذلك " قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلتُ مِنهُم نَفسًا فَأَخَافُ

أَن يَقتُلُونِ * وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرسِلهُ مَعِيَ رِدءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجعَلُ لَكُمَا سُلطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُونَ" (القصص 33 – 35)، "قَالَ رَبِّ اشرَح لِي صَدرِي * وَيَسِّر لِي أَمرِي * وَاحلُل عُقدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفقَهُوا قَولِي * وَاجعَل لِّي وَزِيرًا مِّن أَهلِي * هَرُونَ أَخِي * اشدُد بِهِ أَزرِي * وَأَشرِكهُ فِي أَمرِي * كَي نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا" (طه 25 – 35).

القيادة تؤهّل صاحبها لأن يمتلك الشجاعة الأدبيّة مع الذات قبل أن يمتلكها مع الغير، لذلك فليس بينه وبين النظر للحقّ ستار كاذب أو سراب خادع، ولا مانع لديه أن يتراجع ذاتيًّا؛ ليكون في موطن "المَقُود" لا "القائد" إذا شعر بتخلّفه أو بأخطاء وقع بها، إنّه لا يلغي تجارب الآخرين ويحتفظ بها في "الأرشيف" أو "في مكتبته الخاصة" أو "في هاتفه الجوّال"، كما أنّه يسجّل تجاربه للآخرين ويستخلص لهم العِبر، وعليه تقديم الحلول والبدائل أو العمل على اخيار الصف الثاني ممّا يستأهلون ذلك.

إنّ الشخصيّة القياديّة شخصيّة غير مغرورة، تؤمن بأن مِنَحَ الله موزّعة بين العِباد حتى البهائم منها، وهي تتطلّع إلى أن تُعطي من فضل الله الشيء الكثير، وتبذل ما في مقدورها أن تبذل له، وفي أصعب الظروف والشدائد، فالشدّة، بين الضعف المُفرط والغلظة المُفرِطة، ضرورة في أَطرِ الناس على الحقّ والدفاع عنه، والقيام بالعدل والقصاص من الظالم وردّ العدوان، وكلّ هذه الأمور تأتي خِلافًا للّين.

ومن خصائص القيادة الإلهام الذي يقوم على ثلاثة أمور، الرؤيا الصادقة، والفِراسة أو التوسُّم في الأمور، والحَدس؛ فالشخصيّات القياديّة ميّالة لإبداء آرائها، وآراؤها لا تأتي من فراغ،

بل هي حصيلة موهبة إلهيّة وكسب ذاتيّ، وكذلك طرح اجتهاداتها للآخرين، فهي معطاءة في فكرها، كما أنّها معطاءة في أدائها ووجدانها، لذا نرى الشخصيّة القياديّة متمرّدة بطبيعتها على الاستسلام للآخرين ما لم تقتنع وتتيقّن من الآراء والأفكار المطروحة عليها، لكنّها في المقابل إذا اقتنعت تنطلق بثبات وثقة إلى الأمام.

الشخصيّة القياديّة شخصيّة جاذبة، تَألَفُ وتُؤلَف، تؤثّر في الخلق بسلوكها وقيمها ومبادئها وشخصيّتها الفذّة، وهي في الوقت ذاته شخصيّة بليغة ذات بيان وتذوّق للمعاني والصور والعبارات، وهي تستطيع محاورة الآخرين وإقناعهم وإيصال الأفكار إليهم، وهي ببساطة، تُقدّم للناس مشروعًا مشتركًا، وترسم لهم منهجًا واضحًا، وتُبرِز لهم معالم الطريق، وتُحدّد لهم الهدف من دون تعقيد أو تمويه، وعليها تسهيل الأفكار وتبسيط المعاني، ليكون الجميع عارفًا ومقتنعًا ومشاركًا.

القادة لا يتركون مدخلًا لليأس والقنوط والعجز والانهيار عليهم أو على من تبعهم، بل يبذرون دائمًا الأمل والفأل الحسن، ويُبشّرون بالخير، ويُعزّزون الطموح، ويزرعون الثقة؛ والقيادة بهذه المعطيات تمتلك الصلاحيّات الآتية: توقّع الاحتمالات، إعادة ترتيب الأوْلويّات، تغيير الخطّة، وضع الحلول البديلة، توسيع دائرة الوسائل، تقدير المخاطر، اختيار الصف القياديّ الثاني، وغير ذلك من القضايا؛ وفي ذلك توظيف لطاقاتهم الكبيرة واستغلال لمواهبهم المتعدّدة، فربما يوصف بعض القادة بالمغامرين، لكنّ هذا نابع عن شجاعتهم وميزة الريادة لديهم، ومهمّا كلّفت مغامراتهم الأمّة فإنّها تترك في الأجيال القادمة روحًا متوقّدة.

ولكي يكون القائد إيجابيًّا هناك العديد من السِمات والمهارات التي يمكنه تطويرها أو تحسينها، ومنها التأثير الإيجابيّ، والتركيز الكامل، والقدرة على منح الأمل لمن يعملون معه، ثم

لا بدّ من أن يتّسم القائد بالثقة التبادليّة، فعليه أن يثق بفريقه ويثق فريقه به، ويتّسم باحترام الذات والكفاءة، والأهم هو فهم الذات.

يقول الفنان والكاتب "ميشيل ايكيم دي مونتاني" (1533–1592): لقد جمعت باقة من أزهار الرجال ولا أملك منهم إلّا الخيط الذي يربطهم؛ فيما اعتبر إمبراطور فرنسا "نابليون بونابرت": أنّ "القائد" هو تاجر الأمل، وأنّ جيشًا من الوعول يقوده أسد، خير من جيش من الأسود يقوده وعل، وأفضل مزايا القادة، برودة الأعصاب، وأنّ قلب القائد يجب أن يكون في رأسه؛ في حين يعتبر الكاتب الأميركيّ "مايكل هافينغتون": أنّ الجرّاح يقوم بقطع أحد الأطراف من أجل حماية الجسم من المرض، ويجب على القائد العامّ الانسحاب من حرب لا يمكن كسبها من أجل حماية الأمّة؛ وهذا يؤيّد قول الفيلسوف "كونفوشيوس": بأنّه يُمكن حرمان الجيش من قائده، ولكن حتى الرجل العاديّ لا يمكن حرمانه من هدفه؛ فجاء "غاندي" ليعزّز قول كونفوشيوس بقوله: ها هو شعبي، يجب أن أتبعهم؛ أمّا الرئيس الأميركيّ "روزفلت" فيميّز بين القائد والمدير بقوله: يسأل الناس عن الفارق بين القائد والمدير، فالقائد يقود، أمّا المدير فيوجّه؛ وهناك الكثير من الأقوال في القائد والقيادة، والخصائص لكل منهما.

لقد واجهني الكثير من المصاعب في البحث والتفتيش عن السنة أو الفترة التي تمّ فيها استخدام مصطلح القائد، لكنّي أشرت في بداية المقالة، إلى أنّ استخدامه الواسع بدأ تقريبًا منذ أربعينيّات القرن العشرين، مع الإشارة إلى أنّ "بادن باول" مؤسّس الحركة الكشفيّة العالميّة في مطلع القرن التاسع عشر قد استخدم المصطلح في مخيّماته وتوزيع المهمّات على الكشاف، لكن بأسماء أخرى مرادفة نوعًا ما لمصطلح القائد كالمُرشد أو المفوّض، إلخ.

إنّنا اليوم في "عصر القادة"، عصر المهمّات الصعبة، وعصر التطور والتغيّر الكبير في الاقتصاد والتكنولوجيا والمشاريع، وعصر التغيّر المناخي، وعصر التبدّلات الجيوسياسيّة، وغير ذلك من العصور المُدمجة، لذا أصبح من الضروريّ التفتيش عن تسمية جديدة لمصطلح القائد، لأنّه بات (وهنا أعتذر من التوصيف) مصطلحًا شوارعيًّا يطلقه شباب الأرصفة على من تنتفخ عضلات ساعدَيه، أو على الذي يجلس بشكل مخالف للجلوس، أو الذي يموّل بالمال أو السلاح أو المخدرات تلك المجموعات من الشباب، حتى أصبح بعضهم يُطلق على من يعتبره القائد مصطلحات: الريّس، الكبير، الليدر،البيغ بوس، الزعيم، وما إلى ذلك، ممّا يعني التفكير جدّيًّا في إعادة النظر في المصطلح الذي فقد قيمته، فلربما يُعاد الاعتبار للقائد أن يُكنّى بالقدوة.